المحاضرة الخامسة السمات

سمات فن المنمنمات العربية

يمكن إيجاز أبرز سمات فن تصوير المنمنمات العربية بالنقاط الآتية:

- تستمد هذه المنمنمات أغلب موضوعاتها من المادة العلمية أو التاريخية أو الأدبية الواردة في المخطوطات التي تصورها، وهي تعكس الأفكار وأنماط الحياة الاجتماعية وأشكال الشخوص والكائنات والأزياء والمباني.

- وردت معظم التصاوير بصيغة واقعية مبسطة من دون تكلف في الرسم أو جنوح في الخيال، أو إمعان في التزويق والزخرفة، ما عدا تلك الرسوم التي استمدت مادتها من بعض القصص الدينية، فقد أسهم الخيال الديني في تأليف عناصرها على نحو يجمع بين الواقعي والمتخيّل.

- تحفل هذه التصاوير بأشكال إنسانية ذات ملامح شرقية، فالرجال مقوسو الأنوف وذوو لحى سوداء، وتظهر عليهم ملامح النشاط، ولا تبدو عليهم الرشاقة والدعة وغيرها من الملامح الموجودة في الأشكال الإنسانية التي تظهر في المنمنمات الفارسية أو المغولية.

- يلاحظ تشابه كبير في أسلوب التصوير السائد لدى مسيحيي الكنيسة الشرقية، إذ تحيط أكاليل النور، وهالات التقديس برؤوس بعض الأشخاص، وتبرز أشكال الأنوف بخطوط بارزة من اللون، وتعالج الملابس المزركشة والمزينة بالزهور والزخارف النباتية، وأشكال الملائكة ذات الأجنحة المدببة، وفروع الأشجار، والأشكال النباتية، بأسلوب نمطي يشبه أسلوب التصوير المسيحي الشرقي الذي يظهر التأثر الواضح بالفنين الساساني والبيزنطي، مما دعا بعضهم إلى الاعتقاد بأن هذه الصور الإسلامية من صنع المسيحيين أنفسهم.

- اعتمد المصورون العرب على التكوين الإيقاعي الذي يستند إلى رهافة الفنان وخبرته في توزيع عناصر العمل الفني، بما في ذلك من خطوط وألوان وسطوح، بحيث تتكون الأشكال من خطوط داكنة، تكسوها الألوان والزخارف النباتية والكتابية من دون تداخل منسجم، أو تدريج في نغمات اللون، أو تباين في إيقاعات الظل والنور، كما هي الحال في التصوير التقليدي الغربي.

- الأشكال مسطحة، ولا تخضع للتجسيم، وتتوزع في أرجاء اللوحة وفق أهميتها، وغالباً ما تكون الوجوه البشرية شبه أمامية، في حين تبدو رؤوس الدواب والماشية في أوضاع جانبية،

وهناك بعض المحاولات لإعطاء أشكال الأبنية بعداً ثالثاً من دون إدراك لمفاهيم المنظور في التصوير الغربي.

- تتنوع الألوان بكل درجاتها في هذه التصاوير، وتتوزع وفق المعايير الجمالية المحلية، حيث يبدو الاهتمام واضحاً بالألوان الذهبية والزرقاء على الأرضية البيضاء لما تتضمنه من دلالات مقدسة، في حين تبدو الخطوط أكثر عفوية وعاطفية، وأقل رهافة من تلك الموجودة في التصوير الفارسي أو المغولي.

- يستعين الفنان بكل العناصر والمفردات الفنية من أجل تجسيد أفكاره ووضعها ضمن إطارها الملائم، ويعتمد في ذلك على الأشكال الآدمية والحيوانية والنباتية، والمعمارية إضافة إلى الزخرفة الهندسية أو النباتية، وأنماط الكتابة العربية.

- يرى بعض الباحثين أن التصوير العربي لجأ إلى تقديم فراغ شاقولي بدل الفراغ الأفقي الذي يعتمده الغربيون، حتى يتمكن الفنان من تقديم شخوصه في سلسلة تبدأ من الأسفل نحو الأعلى، وقد أطلقوا على ذلك (المنظور الحلزوني الشاقولي) أو البعد اللولبي مستأنسين ببعض أعمال الواسطي.

كان القرن الثالث عشر بحق عصر النهضة بالنسبة إلى الفن العربي، وكان تصوير المنمنمات يتطور بظهور أسماء لامعة وخالدة، حققت غزارة في الإنتاج عبر الرسوم التوضيحية للكتب الأدبية والعلمية، ولا شك في أن هذا الفن شهد تطوراً مماثلاً في المغرب العربي والأندلس، على الرغم من ندرة ما وصل منه نتيجة الحروب وآثارها المدمرة التي ذهبت بآلاف الكتب والمخطوطات العربية التي ازدانت بفن المنمنمات، وليست منمنمات الفنان الجزائري محمد راسم، في القرن الماضي إلا امتداداً لمدرسة التصوير العربي في المغرب.

لقد تضمنت الفنون الإسلامية العديد من الحرف أو الصناعات التي كان المسلمون يقومون بإنتاجها تحت رعاية الحكام والأمراء، وقد تمثلت تلك الفنون في العمارة بأنواعها وصناعة التحف الفنية التطبيقية والورق والمخطوطات وغيرهم الكثير من الفنون، والتي نتج عنها جميعًا أجمل زخارف اسلامية والتي عبّرت عن الحضارة الإسلامية ومدى تطورها، وقد ظهر أيضًا ما يُعرف باسم فن المنمنمات الذي يُعتبر من أحد أهم فروع الفنون الإسلامية في التراث الإسلامي.